

خسائر الأوهام

الكاتب: إبراهيم السكران



الحمد لله وبعد،

من المشاهد المتكررة في نهار رمضان أن ترى الرجل يسير في الشارع، أو واقفاً بسيارته عند إشارة مرور، وتراه قد لف لثامه على وجهه، وانقبضت حواجبه، مع قابلية سريعة للانفعال، وأضمحلال طاقة تحمل الحوار والأخذ والرد.. فإذا رأيت هذا المشهد المتكرر في نهار رمضان يستحوذ عليك التساؤل والاستغراب ما مبرر كل هذا اللوحة الحزينة يا ترى؟ لماذا يختار بعض الناس أن يبدو مظهره بهذا الشكل المفجع في نهار رمضان؟ هل هذا الشخص واقع فعلاً تحت حالة إعياء وإرهاق حاد أفقدته حيوية الشخص الطبيعي؟

الحقيقة أن كل القصة أن بعض الصائمين يعيش تحت سيطرة وهم نفسي أنه غير قادر على التعامل الطبيعي بسبب إجهاد وعنت يستولي عليه، بل ربما تنفس بزفير الكلال واللubb، ومشى متھالكًا متطرحاً كأنما يجر قيوداً خلفه، وإذا أراد أن يجلس ألقى نفسه كالذي خذلتة مفاصله محلول العرى! نعم، قد يعتري الصائم شيء من الإرهاق، ولكنك قد تجد هذا الشخص نفسه يصيبه في غير رمضان إرهاق أكثر ومع ذلك لا يمشي بهذا المظهر الجنائي الذي تراه به في نهار رمضان، وهذا يؤكد أن جزءاً كبيراً من هذا المشهد ليس ناتجاً عن إعياء حقيقي، بقدر ما هو ناتج عن حالة نفسية يوهم المرء فيها ذاته أنه في حالة تستدعي أن يكون بهذا الشكل.

الفرح بالعبادة

حسناً.. ربما تسأله متسائل فقال وما الإشكال في هذا المشهد الملثم المكفر؟ الحقيقة أن هذا الشخص أضع على نفسه أبواباً من الأرباح والثواب عند الله، ففات عليه الفرح بالصوم، والابتهاج بالتعبد لله بالإمساك عن

المفطرات تسليمًا لله سبحانه، وامتلاء القلب حمداً لله أن بلّغه الصيام والإمساك عن المفطرات.

والفرح بالعبادة والابتهاج بها من كمالاتها ومقاماتها العظيمة، ألا ترى الله تعالى قال عن القرآن (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ*) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فِي ذَلِكَ فَلَيُفْرِحُوا) [يوس : 57-58].

فتدرك الأمر والتوجيه في قول الله (في ذلك فليفرحوا).. فالله يريد منا أن نفرح بالقرآن، ومضامين القرآن..

ولما تداول بعض أهل العلم الحديث عن أقرب طرق الإيمان وأجل أعمال القلوب التي تقود إلى الله ذكر ابن القيم أن طريقة شيخه في حياته هي هذا الطريق ذاته! كما يقول ابن القيم:

(ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في المنام، وكأني ذكرت له شيئاً من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته، لا أذكره الآن، فقال: "أما أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرور به" أو نحو هذا من العبارة، وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله) [مدارج السالكين: 2/174].

وبكل صراحة.. فإنني حين قرأت هذا الكلام لابن القيم تحلقت حولي الدهشة حتى أجمتنني بما أطلقت الحديث، فلست أدرى أتعجب من الأحوال الإيمانية لابن تيمية تغمده الله برضوانه؟! أم أتعجب من رؤيا ابن القيم التي تغوص في أدق مسائل أعمال القلوب؟!

إنه ليس الفرق في الفراش والوسادة.. ولكنه الفرق في القلوب التي تنام على

هذه الهموم المرفرفة في ملوك الإيمان . والفرح بالله، وبأعمال الإيمان التي تقرب إلى الله؛ جاءت الإشارة إليه في آيات متعددة بلفظ الفرح، ويلفظ الاستبشر، وغيره، ولذلك قال ابن القيم (فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن؛ من أعلى مقامات العارفين) [مدارج السالكين: 150/3].

والمراد هنا أن هذا الصائم المكفر الذي غطى نصف وجهه الأدنى بعمامته، ونصف وجهه الأعلى بحواجبه؛ أنه أضاع على نفسه عبودية الفرح بالله، وفوت على نفسه أيضًا عبادة جليلة وهي عبادة (التبسم وطلاقة المحيا)، فهي صدقة من الصدقات، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر، قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) [مسلم: 2626].

وفي السنن عن أبي ذر (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة) [الترمذى: 1956] وصححه غير واحد من أهل العلم.

وفي البخاري عن جرير قال (ما رأني النبي صلى الله عليه وسلم- إلا تبسم في وجهي) [البخاري: 3035].

الصيام عبادة تدخل السرور على الصائم

فإذا وضع الصائم في ذهنه هذا المعطى الشرعي، وهو أن الصيام عبادة تدخل السرور والبهجة على الصائم، وليس مبرراً أصلًا لاغلاق منافذ التواصل مع العالم الخارجي بهذا اللثام والاكتهار، اختلف تعامله كلياً مع هذه الشعيرة، وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

ما سبق هو محاولة لمناقشة وتحليل مظاهر بعض الأوهام النفسية، وكيف تفوت بسببها الأجر العظيمة من الله سبحانه.

لابأس، دعنا نواصل بعض مظاهر الأوهام النفسية الأخرى في الداخل الرمضاني :

فمن ذلك -أيضاً- أنك تجد كثيراً من الناس يسمع ويستحضر فضل تلاوة القرآن في رمضان، فتجده منهمكاً في العزم والتخطيط على الاستكثار من

الختمات، بل ربما صعد أيضًا درجة إلى عقد الهمة على التدبر، بل ربما صعد أيضًا أكثر وأكثر ووضع لنفسه برنامجًا في دراسة تفسير لكتاب الله، ولكن تلاحظ أنه في كل هذه الهموم إنما يفكر بنفسه! أما أهله من حوله فهو يتربّب منهم ويتطوّل ألوان الطبخات والفطائر والمقلبات على مائدة الإفطار، بل إذا تقلّصت بعض الأصناف التي يحبها على الإفطار ندّت من لسانه عبارات العتب واللوم والتأسف.

يا لله العجب.. هذا الشخص المهموم بتلاوة القرآن يغفل عن حث أهله على تلاوة القرآن، بل يشغلهم بالطبخ يتقاوزون بين القدور والمعجنات! لماذا؟ لأن هذا الشخص نفسه يتوهّم أن الخطاب الشرعي بتلاوة القرآن في رمضان خطاب فردي، يسمع هذه الفضائل الشرعية وهو يفكّر بنفسه فقط، ولو استحضر هذا الشخص أنه إذا حث أهله وساعدهم على تلاوة القرآن فكل حرف من تلاوتهما يكتب له مثل أجراه، لاختلف تعامله كلياً، كما قال صلى الله عليه وسلم (من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) [مسلم: 2674].

ولذلك فإن هذا المعنى الحاضر عند أهل العلم، وهو قاعدة "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه" هو الذي عللوا به منع إهداء ثواب القراءات كالصدقة والأضحية للنبي صلى الله عليه وسلم، مع أنه يجوز إهداء ثواب القراءات لغير النبي صلى الله عليه وسلم، والسبب في هذا المنع أن أعمال أمة محمد صلى الله عليه وسلم كلها إنما يكتب لنبينا مثل أجورهم أصلًا، سواءً أهدوا ثوابها له أم لا، لأنه -صلى الله عليه وسلم- هو الذي دعانا إلى هذا الهدى، وللإمام ابن تيمية رسالة مستقلة في هذه المسألة، وهي منع إهداء الثواب للنبي صلى الله عليه وسلم نسبه فيه على مثل هذا التعليل.

استثمار أبواب الخبر

والمراد أن المسلم ينبغي أن يعمل ذكاءه ويقظته في استثمار أبواب الأجر والثواب، فإذا ساعد أهله بالتحفظ من المأكولات الرمضانية وحظوظ النفس، وهيج نفوسهم للتغني بالقرآن، ربما كتب له من ثواب تلاوتهما أكثر من ثواب

تلاؤه نفسه!

ومن الأوهام النفسية -أيضاً- في الداخل الرمضاني التي تتسبب في خسارة الشواب من الله:

أنك تجد طيفاً واسعاً من طلاب العلم يستحضرون ويتناقلون بينهم ما ذكره الإمام ابن رجب عن بعض السلف أنهم كانوا يتذمرون بمحالس العلم في رمضان ويستكثرون من تلاوة القرآن، كنبله عن الزهرى أنه (إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام) ونقله عن مالك أنه (إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على تلاوة القرآن من المصحف) [ابن رجب، لطائف المعارف، دار ابن كثير، تحقيق السواس، ص 318].

والذي يظهر -والله أعلم- أن هذه الآثار لم تكن مشهورة بين أهل العلم، وأن أول من أشهرها هو ابن رجب في كتابه المشار إليه، وبواسطته راجت بين المعاصرين في كتبهم عن مجالس شهر رمضان ونحوها.

رمضان ليس وقتاً للعلم؟

المهم هنا، أن كثيراً من طلبة العلم استقر في أذهانهم أن رمضان ليس وقتاً للعلم، وإنما هو وقت تلاوة القرآن فقط، وليس هاهنا إشكال، وإنما الإشكال أن الكثير يعجز عن أن يعمر يومه بالقرآن، فلا يقرأ إلا بعد صلاتي الظهر والعصر، ساعة أو ساعتين، فيبقى محتاراً أمام بقية اليوم، فالمستقر في وعيه أنه من المعيب أن يشتغل بالعلم في رمضان، فيتسرب وقته تدريجياً إلى الاضطجاع وتتنوع حالات الاستلقاء على الأسرة والأرائك، ويتسلل شيئاً إلى برامج التواصل الاجتماعي وفضول تصفح الانترنت، أو أحاديث إزعاج الفراغ التي أحسن أحوالها الإباحة.

فتتأمل كيف عجز عن الفاضل الذي هو تلاوة القرآن عامة اليوم، فلم ينتقل لما يليه في الفضل وهو العلم، بل انتقل للترهات والفضول! فيما لصنائع الأوهام النفسية!

وهذا يعني أن هذه الفرضية المشتهرة اليوم وهي أن رمضان ليس وقتاً للعلم

أنها فرضية خاطئة بهذا الإطلاق، فالعلم من أجل الأعمال الصالحة التي يحبها الله، فإذا انتهى ورد المسلم من القرآن في شهر رمضان، ولم يستطع أن يقرأ أكثر من ذلك، فليشغل وقته بالعلم فهذا خير من ضياعه في الفضول، وأي شيء أعظم من أن ينتهي المسلم من ورده من القرآن في رمضان، فينشر صحيح البخاري بين يديه، ويقرأ أحاديث سيد رسول الله صلى الله عليه وسلم- ويتأمل حياته وبياته وزهده ووصاياه وسمو نفسه فيتذكى بتلك الأحوال النبوية؟! أو يراجع محفوظاته من العلم حتى لا ينساها بتركها شهراً كاملاً دون مراجعة، أو يفقه أهله وجماعة مسجده في أحكام الصيام والتراويف والزكاة وزكاة الفطر لمناسبة الزمان، ونحو ذلك.

التدبر أثناء الصلوة

ومن مشاهد الأوهام النفسية في الداخل الرمضاني أيضاً، أنك تجد بعض المصليين يحرص أن يتدارس ما يقرأ الإمام من القرآن في صلاة التراويح، لكنه إذا جاء الإمام للشفع وقرأ سورة الأعلى والكافرون، توقف عن التدبر، وشعر أن هذه كالفاصل الروتيني وليس موطنًا أعظم للتدارس! الواقع أن هذه الحالة تتعلق بأصل أعم، وهي غفلة بعض المصليين عن إيلاء السور التي شرع تكرارها المزيد من التدبر، كسورة الفاتحة والأعلى والكافرون والإخلاص والسجدة والإنسان الخ، فهذه السور التي شرع الشارع تكرارها في صلوات معينة يعني أن فيها قدرًا زائداً من الأهمية للمسلم، لأنها مجرد فواصل فقط!

فأين من يعيش مثل هذا المعنى ويمتلئ قلبه أن أجل ما تدبره في صلاة التراويح هو سورة الفاتحة التي هي أعظم ما تكلم به ملك الملوك سبحانه؟! ومن الأوهام النفسية في الداخل الرمضاني أن بعض الناس وهو يسمع الموعظ عن فضل تلاوة القرآن في رمضان لا يخطر بباله إلا أن تلاوة القرآن في رمضان في النهار وهو صائم، ويستغرب جدًا أن تكون التلاوة المقصودة في ليل رمضان وهو مفطر! وهذا الوهم سبق أن كتبت فيه مقالة مستقلة بعنوان (هل تلاوة القرآن مخصوصة بنهار رمضان؟) وهي منشورة على الشبكة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على سيدي رسول الله وأله وصحبه

الكلمات المفتاحية:

#إبراهيم-السکران | #الصيام | #رمضان

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.